وقلب ديارهم عليهم. بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التى أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التى اكتسبوها بالظلم والعدوان. وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا فى الحال. فإذا كان عذاب هؤلاء - وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التى جعلها الله آية لهم - فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذابا. ومن اعتبر أحوال العالم قديما وحديثا، وما يعاقب به من سعى فى الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة فى الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

(قلت) وقد يظهر فى تخصيص ثمود هاهنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى فى وصفهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧) وقال ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ أى موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد. ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ثم قال ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٥، ١٧) ولهذا أمكن عادا المكابرة، وأن يقولوا لنبيهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ (هود: ٥٣) ولم يمكن ذلك ثمود، وقد رأوا البينة عيانا، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان فى تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض. والله أعلم».

١٢ ـ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن:

وهى لكل من: الرمانى: وهو أبو الحسن على بن عيسى الذى ولد سنة ٢٩٦هـ بمدينة سامرا ببغداد، وقد كان محبًا للعلم، ولقب بالنحوى المتكلم شيخ العربية ت٣٨٦هـ. والخطابى: وهو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى